الحركة النسائية زمن الرسول

عزيز محمد أبوخلف
باحث
http://fac.ksu.edu.sa/amkhalaf

استكشاف الماضي بالتفكير الإيجابي

قلّما نجد في الحضارة الإسلامية، أيام عزها وفي ريعان شبابها، حالات انتهاك لحقوق النساء من زنا أو اغتصاب أو غير ذلك. فالمرأة مصونة محترمة في السلم والحرب، ما لم تكن هناك قوانين دولية، كالتي كانت تبيح السبي مثلاً. لكن المرأة كانت فاعلة منتجة ومؤثرة في المجتمع، وصوتها مسموع على أعلى المستويات كما سنرى. وقد أثبتت المرأة مصداقيتها حتى في مجالات العلم. يقول الذهبي، وهو من كبار علماء الحديث: ما علمت في النساء من اتُّهمت، ولا مَن تَرَكُوها.

هناك الكثير في حياة النبوة والصحابة والعهد الراشدي لم يُكتَشف بعد. نحتاج إلى تشغيل عقولنا لاستكشاف ذلك. في السابق شغّلوا العقل لكن في مجالات الغيب، وفيما أنتجه غيرُنا. والعقل يتعب من التفكير خارج نطاقه. فيما مضى اشتغل المفكرون كثيراً على منطق أرسطو، ولم يطوروا فيه كثيراً. في الوقت الحاضر يركزون كثيراً على الإعجاز العلمي، بانتظار ما ينتجه العلم التجريبي ثم يطابقونه على النصوص، ويصرخون: سبقناهم! في الحالتين، حالة العناية بالمنطق والعناية بالعلم التجريبي، تعظيم لهذه العلوم، ولكن على حساب التطور العلمي الذي يجب أن نركز عليه. نظل بعيدين عن التطوير لأننا نشتغل على منجزات غيرنا دون تفكير تطويري. لا بد أن نعكس الأمر: أن نشغّل عقولنا في الأمور العملية لا الغيبية، وأن نعمِّق الايمان عن طريق العمل والممارسة، كما كان في بداية الإسلام.

سنتطرق إلى بعض الحالات الراقية أيام الرسول والصحابة، كان للنساء فيهن دورٌ لافتٌ للنظر يمثل حركة وعي نسائية تفوق القشور التي يتفاخر بها المُحْدَثون. كان من الممكن أن تستمر الحركة التوعوية النسوية على مر الزمان وتتفوق حضارتنا في هذا المجال وغيره. لكن هيهات هيهات، فصيانة المنجزات والحفاظ عليها قد يفوق في صعوبته عملية إنشائه. هيا بنا نستكشف!

ناطقة باسم النساء ومُدافِعة عن حقوقهن

(جاءت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: إن أبي زوَّجني ابن أخيه ليرفع بي خَسيسَتَه، فجعل النبيُّ الأمرَ إليها، فقالت: قد أجَزْتُ ما صَنَع أبي، ولكن أردت أن تَعْلَم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء).

يدل هذا على جرأة هذه الصحابية وقيامها بمخاطرة، حيث أن الأمر يمكن ان يُغضب أباها وزوجها. لم تكْتَفِ هذه المرأة بالمطالبة بحق شخصي بل جعلته حقاً اجتماعياً يشمل كل النساء. لا بد من الإشارة إلى أن مجالس النبي تمثل مجالس الحكم والتشريع والقضاء وغير ذلك.

المرأة والمجلس التشريعي

عند البخاري عن عائشة أنه ذَكَر عندها ما يَقْطَعُ الصلاة: الكلبُ والحمارُ والمرأةُ، فقالت: شَبَّهْتُمونا بالحُمُر والكلاب. والله لقد رأيت النبي ﷺ يُصلي، وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذي النبي ﷺ، فأنْسَلُّ من عند رجليه.

قال الإمام أحمد: يقطع الصلاة الكلب الأسود، أما المرأة والحمار فلا. أمُّنا عائشة تمثل سلطة تشريعية، فهي تعترض وتقرر وتدافع عن واقع النساء.

مناقشة الحاكم

عن جابر قال: (شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد ... ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكّرَهنّ، فقال: تَصدَّقْن، فإن أكثركن حطب جهنم. فقامت امرأة مِنْ سِطة النساء، سَفْعاء الخدَّين، فقالت: لمَ يا رسول الله؟ قال لأنكن تُكْثِرْنَ الشَّكاة، وتَكْفُرْنَ العشير. قال فجَعَلْنَ يتصدَّقن من حُلِيّهنّ، يُلْقين في ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن). مِنْ سِطَةِ النساء: جالسة في وسط النساء. سَفْعاء الخدَّيْن: فيها تغيُّر وسواد. الشَّكاة: الشكوى. هذا يعني ان هذه المرأة كانت مكشوفة الوجه.

هذه الواقعة تدل على حق الاعتراض والمناقشة، وعلى حرية تصرف المرأة في مالها، وتدل على كرم المسلمة وحُبِّها للخير. يمكن للنساء تكوين جمعيات نسائية تمارس نشاطات اجتماعية مختلفة.

ثقافة جنسية راقية

تروي لنا أمنا عائشة رضي الله عنها ان امرأة جاءت إلى النبي عليه السلام تشتكي زوجها، فقالت: ولم يكن معه إلا مثل الهُدبة، فلم يقربني إلا هَنة واحدة، ولم يصل مني إلى شيء. تذكر لنا الروايات أن زوجها دافع عن نفسه فقال: كذَبَتْ والله يا رسول الله، إني لأنْفُضُها نَفْضَ الأديم، ولكنها ناشز. وقد تدخل أحد الصحابة فقال: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عَمّا تَجْهَرُ به عند رسول الله ﷺ؟ فوالله ما يزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على التبسُّم).

طبعاً الرسول كان هو النبي والحاكم والقاضي، ومجلس القضاء يتطلب التصريح إن لزم الأمر. وتبسُّم الرسول عليه السلام يدل على تعجبه من وفور عقل هذه المرأة التي تشرح وتُفَصِّل وتحاجج دفاعاً عن نفسها، كما أنها تضرب الأمثلة وتُكَنّي وتَستعير.